

أغراض الشعر الأندلسي المستحدثة

شعر الطبيعة

لم يأت شعر الطبيعة مصاحباً فتح الأندلس ، ولم ينبثق من فراغ ، بل نبتت جذوره وأصوله في المشرق العربي وترعرع وازدهر في الأندلس لما خصها الله به من طبيعة ساحرة حتى أضحت أغنى بقاع المسلمين منظراً وأوفرها جمالاً ، وقد تغنى بجمالها كل من حل بها ، ووصفها المقرري في نفح الطيب قائلاً : "محاسنها لاتستوفي بعبارة ، ومجاري فضلها لايشق غباره هذه البقعة من الأرض الغنية بشتى المناظر تأسر الطرف وتستهوئ الأفئدة وتثير المشاعر والعواطف ، وتثري الأخيلة " وكان لهذه الطبيعة الساحرة أثرها الكبير في خصب عقول الأندلسيين ورفاهية حسهم ، ورقة تصويرهم ، وسعة خيالهم ، فمارسوها صقلاً لموهبتهم الشعرية وشحذاً لقدرتهم التخيلية وإثباتاً لمقدرتهم الإبداعية ، ولاسيما أن الحضارة في الأندلس قد بلغت في ربوع الأندلس مبلغاً رفيعاً فاتسعت فيها آفاق العلوم والفنون والفلسفة ، فقد ساعدت الطبيعة بحضارتها الفاتنة على نضج الشعر وحلاوته عند الأندلسيين ، فكان لمجال الأنس والبهجة أثر كبير في تنوع أغراض الوصف ، كما وصفوا الحقائق والأبنية وما فيها من صور وتمائيل وبرك ، فالطبيعة الأندلسية هي المعلم الأول الذي ألهم الشعراء ، وهي الفيض الزاخر الذي استمدوا منه عباراتهم الرائعة التي مجدت ما امتازت به بلاد الأندلس من غيرها من البلدان حتى جعلها ابن خفاجة جنة الخلد في قوله :

إن للجنة بالأندلس مجتلى عين وريا نفس

فسنا صحبتها من شنب ودجى ليلتها من لعس

فإذا ما هبت ريح صبا صحت : واشواقي لأندلس

كما صور الشاعر الأندلسي حياته اللاهية في أحضان الطبيعة الأندلسية الساحرة فرا ح يصور اللهو والحب والخمر في إطار الطبيعة مقدماً لنا لوحات فيها التعبير والأصباغ والألوان ، فهذا ابن الزقاق قد شرب الراح في روضة غناء مزهرة جمعت الأزهار من شقائق و آس وأقاح من يد ساق جميل الوجه ، معتدل القد ، فمزج وصفه للروضة بشرب الخمر قائلاً :

وأغيد طار بالكؤوس ضحا وحثها والصباح قد وضحا

والروض أهدى لنا شقائقه وآسه العنبري قد نفحا

قلنا وأين الأقاح قال لنا أودعته ثغر من سقا القدحا

فظل ساقى المدام يجحد ما قال فلما تبسم افتضحا

وثمة مقطوعات شعرية طويلة للمفاضلة بين أصناف الزهور وألوانها ، من ذلك المعارضات التي نشأت بين الشعراء ، منها معارضة بين أبي الحزم بن جهور حاكم قرطبة و ابن الرومي في أبياته التي فضل فيها النرجس قائلاً :

للنرجس الفضل المبين وإن أبى أب وحاد عن الحقيقة حائدُ

عارضها ابن جهور فقال في تفضيل الورد على سائر الأزهار :

الورد أحسن ما رأت عين وأز خضعت نواوير الرياض لحسنه وإذا تبدى الورد في أغصانه وإذا أتى وفد الربيع مبشراً وإذا تعرى الورد من أوراقه	كى ما سقى ماء السحاب الجائدُ فتذلت تنقاد وهي شواردُ ذلوا فذا ميّت وهذا جاحدُ بطلوع صفحته فنعم الوافدُ بقيت عوارفه فهن خوالدُ
---	--

خصائص شعر الطبيعة وسماته الفنية

١- يعدّ شعر الطبيعة مرآة صادقة لطبيعة الأندلس وسحرها وجمالها، فالشعر دائماً صورة أمينة دقيقة أنيقة لبيئة الأندلس ، وقد سعى معظم الشعراء إلى وصف ديارهم وجمال الطبيعة فيها ، فابن زيدون تغنى بجمال قرطبة والزهاء ، والرصافي البلنسي تغنى بجمال بلنسية ، وابن سفر المريني بأشبيلية ، ولنستمع لأبي الحسن بن نزار الذي تعلق بوادي (أشأت) فوصفه قائلاً :

وادي الأشأت يهيج وجدي كلّما أذكرتُ ما أفضت بك النعماء

لله ظلك وا لهجير مسلطٌ قد برّدت لفحاته الأنداء

والشمس ترغب أن تفوز بلحظة منه فتطرف طرفها الأفياء

والنهر يبسم بالحُباب كأنه سلخٌ نضته حيّة رقطاع

٢- أصبح شعر الطبيعة يحل محل أبيات النسيب في المقدمات الشعرية في قصائد المديح وغيرها ، ولشدة تعلقهم بالطبيعة وهوسهم بها أخذوا يطعمون المراثي بشعر الطبيعة الحنين ٣- تداخل وصف الطبيعة وأخذ يقترن بفن آخر من فنون الشعر الأندلسي لاسيما فن الغزل ، وسبق أن أشرنا إلى تداخل الطبيعة والحب في شعر ابن زيدون ، فهذا هو الوزير ابو عامر بن مسلمة يسير على الدرب نفسه محاولاً أن يحجب الغزل وراء أبيات الطبيعة قائلاً :

وخميلة رقم الزمان أديمها بمفضفض ومقسم ومشوب

رشفت قبيل الصبح ريق غمامة رشف المحب مراشف المحبوب

٤- بدأ شعر الطبيعة في الأندلس يخرج عن مألوف الشعر العربي من حيث الابتعاد عن القصيدة إلا في حالات قليلة، فيعتمد فيها الشاعر إلى قول المقطوعة التي تستوعب طاقة خياله وتصور عطاء شاعريته غير عابئ بعدد الأبيات أو النظام التقليدي للقصيدة ، فلم يترك الشاعر لمحة من لمحات الطبيعة أو زاوية من زواياها إلا وطرقها برشاقة وذكاء، حتى تجمعت لدينا ثروة ثمينة من شعر الطبيعة الأندلسي، لغزارتها وضخامة نتاجها ، صنفت حسب موضوعاتها فخصصت الرياض في مجموعها وما اتصل بهم بقسم أطلق عليه الدكتور مصطفى الشكعة اسم الروضيات وأفرد للزهار قسماً أطلق عليه اسم الزهريات ، وللثمار والبقول وما يتصل بها اسم الثمريات ، والأنهار والبرك والسواقي اسم المائيات، وجعل للأبيات التي قيلت في وصف الثلج مكاناً متميزاً تحت مسمى الثلجيات .

٥- عني شعرهم بتشخيص الطبيعة وتصويرها على نحو إنساني تملؤه الحركة والنشاط ، فبدت الطبيعة في شعر الأندلس حية ناطقة عبر التشخيص والتجسيم ، ومتألقة تشاركهم الوجود ، وتفرض وجودها في الشخصية الثقافية والأدبية في الأندلس .

٦- اعتمد الشاعر الأندلسي في تلوينه وتنويعه لأبعاد لوحته الفنية لشعر الطبيعة على ألوان البيان من التشبيه والاستعارة مع شيء الصنعة التي تأتي ملائمة مع نغمات عذبة وموسيقا تنساب في لين ورقة .

٧- تفنن الشعراء في وصف الطبيعة الطبيعية ، والصناعية فالطبيعة مثل الأشجار والطيور والزهور والأنهار والثلج والثمار وغيرها ، أما الطبيعة الصناعية فتمثلت عندهم بقصور الخلفاء ، والزخارف المعمارية ، والبرك وماشابه .

٨- لقد فاق شعراء الطبيعة في الأندلس أخوانهم المشارقة بغزارة المادة ودقة التصوير وروعة الابتكار ومزج الفنون المختلفة بالطبيعة ونجاحهم بالتعبير عن حبهم لبلادهم وتفضيلها على ماعداها من البلدان فإن وصف الطبيعة في الأندلس كان في الغالب شغفاً بمحاسنها وتصويراً حسيّاً لمباهجها تموج به بين حين وآخر خفقة من حياة ودفقة من عاطفة .

٩- انقسم الشعراء في وصفهم للطبيعة الأندلسية إلى قسمين :

القسم الأول شعراء أحبوا الطبيعة ووصفوها شكلاً ومضموناً بالاعتماد على حاسة معينة لاسيما حاسة البصر وتجسيم جمالها بالالتكاء على الخيال المجنح وصوره الرائعة دون الامتزاج فيها بأحاسيسهم ومشاعرهم امتزاجاً تاماً .

القسم الثاني : شعراء امتزجوا بالطبيعة امتزاجاً تاماً عبر مشاركة وجدانية مؤثرة في النفوس بالاعتماد على معظم الحواس الفعالة كالبصر والسمع والشم واللمس وكل ما يعمق المشاركة الوجدانية ويثيرها ، ولنا في ابن خفاجة خير مثال على ذلك .

شاعر الطبيعة : ابن خفاجة

هو ابو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح عبدالله بن خفاجة الهواري الشقري الأندلسي ، ولد في أسرة ميسورة الحال وعلى جانب من العلم والأدب ، عاش حياة هادئة في عهد الطوائف والمرابطين ، وقضى معظم حياته في ضيعة له قرب بلدته ، ينظم فيها الشعر لنفسه ولم يقصد أحداً من الملوك ، وقد ذاع صيته عند المرابطين ومدحهم إعجاباً بهم ، فنال حظوة عندهم . عاش حياته ولم يتزوج ، وأحاط ابن خفاجة بفنون عصره كالحديث واللغة والنحو والفقه ، غير أنه برع في الشعر ونبع فيه حتى غلب عليه ، فهو شاعر وجداني ، امتاز شعره بحلاوة وطلاوة وفيه عذوبة ، وسهولة ، عذب الجرس تشيع فيه رنة موسيقية قل أن نجدها عند غيره ، نظم في فنون الشعر كلها من مديح ورثاء وغزل ونسيب وهجاء وعتاب وحكمة وزهد وأخوانيات إلا إن الفن الذي برع فيه كان وصف الطبيعة حتى سُمِّيَ بجَنّان الأندلس ، فقد وصف الطبيعة ورسمها بريشة فنان استحضر معه كل ما يحتاج إليه من ألوان جعلت أبياته لوحة نضرة تعجب السامع وتبهر الناظر ، فقد تمثل ابن خفاجة كل هذه المعاني وكانت أدواته في رسمها هي التشبيه العذب والاستعارة الجميلة والصنعة الخفيفة والموسيقا المنسابة عن صور حية ممزوجة بالمشاعر الإنسانية ، فها هو في قصيدة الجبل يبدأ بمشاركة وجدانية مصوراً حاله قائلاً :

بعيشك هل تدري أهوجُ الجنائب تخبّ برحلي أم ظهور النجائب

وقد وقف ابن خفاجة ليلاً أمام الجبل ، وراح يتأمله ، ويتأمل الطبيعة السابحة حوله في ظلام الليل ، فتخيل الجبل قد أنس به ، وأفضى إليه بذات نفسه ، فراح يناجي الجبل ويصفه قائلاً :

وأرعنَ طمّاح الذّؤابة باذخٍ يطاول أعنان السماء بغارب

يسدّ مهبّ الريح عن كل وجهة ويزحم ليلاً شهبه بالمناكب

وقُور على ظَهر الفلاة كأنه طوال الليالي مفكّرٌ بالعواقب

يلُوث عليه الغيم سودَ عمائم لها من وميض البرق حمزُ ذوائب

أصخت إليه وهو آخرس صامتٌ فحدثني ليلَ السُرى بالعجائب

وقال ألا كم كنت ملجأ قاتلٍ وموطن أواهٍ تبتلّ تائب

وكم مرّ بي من مدلجٍ ومؤوبٍ وقال بظلي من مطيّ وراكب

ولاطم من نكب الرياح معاطفي وزاحم من خضر البصار جوانب

فحتى متى أبقي ويظعن صاحبٌ أودّع منه راحلاً غير آيب

إن الشاعر ابن خفاجة قد نجح بالامتزاج بالجبل فأعاره أفكاره ، وبثه مشاعره حتى صار هو والجبل كائناً واحداً ، وصار الجبل رمزاً للشاعر بتجاربه و حاله وآلامه، فقد بلغ الشاعر من العمر عتياً وحنكته التجارب وصقلته ، فأصبح يعيش وحيداً دون أنيس بعد أن خطف الموت معظم أصدقائه ، فأخذ يتفكر في أمره وعواقبه ، فلا بد لكل إنسان من النظر في أموره والندم قبل أن يدركه الموت ، وهكذا وجد الشاعر مأساته متمثلة بهذا الجبل متخذاً منه معرضاً لحياته ، فيصف ضخامته ونتوءه وقمته الشامخة الضاربة بالفضاء كأنما يطأول بكاھله أعنان السماء ، فهو جبل كالشاعر يسدّ على الريح طريقها من كل ناحية وقد ربح في مكانه شامخاً لا يتزعزع، وانبسطت أمامه فيافي الصحراء كأنه يتأملها ويتعمق في أسرارها ، ويقضي ليلاليه مفكراً في عواقب الأمور وصور السحب التي تلتفت حول قمته وقد أخذ البرق يلمع في جوانبه كأنما هي عمائم سود ذات ذوائب حمر تزيد منظره رهبة ووقاراً ، رسم الشاعر في هذه الأبيات لوحة للجبل كما رآه وكما أثر في نفسه ، واعتمد في رسمه على عدة صور جزئية منها خيالي وبعضها غير خيالي ، وهي جميعاً تتكامل وتتسق كمكلمة بعضها لتبرز لنا شموخ الجبل وامتداده ووقاره.

نلمح الاستعارة في قوله (يطاول أعنان السما بغارب) ، وهي تمثله لنا ذا كاهل ضخمة ، يغالب أعنان السماء وينافسها في ارتفاعها ، كذلك هي منزلة الشاعر ومكانته ، ومثلها الاستعارة (يزحم ليلاً شهبه ...) ومنها الكناية (يسد مهب الريح) فقد أبرزت امتداد الجبل وشموخه وبالغت فيه بلطفة ، إذ تقف أمامه الريح وقد سد عليها المنافذ وحال بينها وبين الانطلاق . ونلمح الحنين التخيل في قوله (طوال الليالي مفكر بالعواقب) وهو يصور الجبل مستغرقاً في التأمل والتفكير العميق برصد أحداث الدهر وتقلباته ، ومن خلات تصوير الجبل ومهابته نرى الشاعر أجاد في التمهيد لتشخيص الجبل وينقل بنا بألفاظه (أصخت ، أخرس صامت ، وقال ألا كم كنت ملجأ ، وكم مر بي ، وقال بظلي ، ولاطم ، وزاحم ، وحتى متى ...) إلى تصوير حوار لطيف بينه وبين الجبل فيحدثه الجبل بالعجائب المذهلة ، والتجارب القيمة ، وبمفارقة لطيفة وهو (أخرس صامت) يتحدث الجبل بحزن وحسرة قلب على من ذهب من الأصحاب ، وحتى متى يبقى وغيره يذهب ؟ مختتماً قصيدته بأبيات فيها من الحكمة والاعتبار بما حوته القصيدة من أفكار ومعان ليعدّ ابن خفاجة بذلك من أبرع الشعراء الذين عنوا بتشخيص الطبيعة ، وخلعوا عليها مظاهر الأحياء وبثوا فيها مشاعرهم وخواطرهم.

شعر رثاء المدن والممالك

إن الظروف السياسية التي ألمت بالأندلس أو ما يعرف بشبه جزيرة أيبيريا منذ سقوط الخلافة الأموية وانفراط عقد الدولة الأندلسية ، وتوزعها على شكل ممالك ودويلات صغيرة أوائل القرن الخامس الهجري ، حتى سقوطها كلياً بيد النصارى سنة ٨٩٧ هـ ، أدت هذه الظروف إلى حالة من التوجس لدى الأندلسيين عامة . وبسقوط المدن الأندلسية الجميلة الواحدة عقب الأخرى وفي أزمان متفاوتة ، أفلت دولة العرب هناك وحروب جنسهم ، فلم يبق منهم سوى تلك الصفحات التي نقرأها من حكم دام ثمانية قرون ، بفعل هذه الأحوال والظروف

المريرة التي شهدتها الأندلس ، ظهر شعر بكاء المدن والدول الزائلة ، وبفعل تلك العوامل ، قيلت القصائد الباكية الشجية في رثائها وتخليد مآثرها ، وبرزت المشاعر الوطنية التي تدعو إلى النصر والجهد من أجل استرجاع الأندلس العربية والوقوف في وجه الأطماع الأجنبية ، فمن ذلك الشعر الوطني الطريف المبتكر في الأندلس في أحضان الكوارث والفتن ، في حين تأخر ظهور مثل هذا الفن في المشرق حتى سقوط بغداد عام (٦٥٦ هـ) ، أما قبل ذلك فالشعر المشرقي يكاد يخلو من هذا اللون باستثناء ما قيل في الاستعبار والاستذكار كقصيدة البحري في إيوان كسرى ، وقد أشار كثير من الباحثين ضعف العاطفة الوطنية في شعر المشاركة ، وقوتها وحدتها في الشعر الأندلسي ، وتمكنها من نفوس شعرائه بفعل التطويق العدائي والحصار المسيحي المهدد لسيادتهم ووجودهم وديانتهم .

بواعثه واتجاهاته :

كان لسقوط الإمارات والمدن في الأندلس الواحدة تلو الأخرى كنتيجة طبيعية للتفكك والانقسام والصراعات الشخصية التي تأججت نيرانها بين أمراء المسلمين ، الأثر المباشر في اشتعال جذوة التأين والبكاء لذهاب هذه الإمارات عند شعراء الأندلس ، **وشعر السقوط في الأندلس قد اتجه في مسارين :**

الأول : ما قيل وقت الحصار أو في أثناء النكبات والحروب ويتسم هذا النوع من الشعر بالحماسة والشدة وتهويل الأمر و تجسيم الواقعة وإثارة عواطف المستغاث بهم الدينية والقومية ، فقد صوروا الحالة البائسة التي ألمت بالإسلام والمسلمين ، وما يتهدهدهم من مخاطر الكفر وبدت الأشعار مفعمة بمعاني الاستصراخ والنجدة التي يتطلبها المقام والتعجيل بالعون والإغاثة لنصرة المدن قبل سقوطها ، بكلمات جزلة وألفاظ مؤثرة رنانة ليلهبوا حماس السامعين لها ، وغالباً ما تكون موجهة إلى الملوك أو الأمراء ذوي القوة والبأس والعزة ممن ينتظر منهم النجدة والحمية والعون ، فيمتزج المدح بالاستصراخ ، ولنا في سينية ابن الأبار القضاعي البلسني خير مثال على شعراء الاتجاه الأول .

ابن الأبار : هو محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر الأبار القضاعي البلسني ، ولد في بلنسية سنة (٥٩٥ هـ - ١١٩٩ م) ونشأ فيها ، بدأ تلقي العلم على والده ، وأخذ عن عبد الله الغافقي السرقسطي ، ولازم أبا الربيع سليمان الكلاعي عشرين سنة أخذ عنه التأريخ وعلم البلاغة والأدب وصناعة الكتابة ، عمل في خدمة الدولة فكان كاتباً لأبي عبد الله محمد بن حفص الموحي ثم تقلبت به الأحوال فارتحل عن بلنسية إلى تونس فقربه صاحبه أبو زكريا ، ولما مات أبو زكريا وخلفه ابنه المستنصر الذي رفع مكانة ابن الأبار ، لكنه غضب منه بسبب دسيسة من حساده ، فأمر بقتله .

كان ابن الأبار عارفاً بالتاريخ ، بصيراً بطبقات الرجال ، ملماً بالعلوم والآداب ، أديباً ناثراً وشاعراً محسناً ، وله قصائد في المدح والوصف والاعتذار والغزل والمجون ، ومن كتبه

"كتاب التكملة لكتاب الصلة " وفيه تراجم علماء الأندلس ، وله كتاب "تحفة القادم" وفيه تراجم شعراء الأندلس وله "الحلة السيرة في أشعار الأمراء " .

سينية ابن الأبار:

عندما حوصرت بلنسية من قبل ملك برشلونة ، استغاث أميرها بصاحب أفريقية ، موفداً عليه ابن الأبار برسالة استغاثة لإنقاذ بلنسية ، ولما وقف ابن الأبار بين يدي الملك وأبلغه الرسالة ، أنشد بعدها سينيته قائلاً :

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلَسَا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجِتِهَا دَرَسَا

وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسْتَ فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عَزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا

وَحَاشَ مَا تَعَانِيهِ حُشَاشَتُهَا فَطَالَمَا ذَاقَتْ الْبُلُوبُ صَبَاحَ مَسَا

تَقَاسَمَ الرُّومُ لَا نَالَتْ مَقَاسِمُهُمْ إِلَّا عَقَائِلَهَا الْمَحْجُوبَةُ الْأُنْسَا

وَفِي بِلَنَسِيَّةٍ مِنْهَا وَقَرْطَبَةٍ مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا

مَدَائِنُ حَلَّهَا الْإِشْرَاكُ مُبْتَسِمًا جَذَلَانُ وَارْتَحَلَ الْإِيمَانُ مُبْتَسِمَا

وَصَبَّرَتْهَا الْعَوَادِي الْعَابِثَاتُ بِهَا يَسْتَوْحِشُ الظَّرْفُ مِنْهَا أَضْعَافَ مَا أُنْسَا

يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلْعَدَا بَيْعَا وَلِلنَّدَاءِ غَدَا أَثْنَاءَهَا جَرَسَا

فَأَيْنَ عَيْشُ جَنِينَاهُ بِهَا خَضِرًا وَأَيْنَ غَصْنُ جَنِينَاهُ بِهَا سِلْسَا

مَحَا مَحَاسِنَهَا طَاغِ أُنَيْحَ لَهَا مَا نَامَ عَنْ هَضْمِهَا حِينًا وَلَا نَعَسَا

فالشاعر حشد معظم طاقاته الفنية والشعرية من أجل تحقيق المهمة التي وُكِّلَ بها ، بالحصول على إعانة ملك أفريقية في إنقاذ بلنسية ، فالموقف عصيب والأمر لا يحتمل التأخير والتباطؤ ، لذلك بدأ الشاعر قصيدته بأفعال الطلب التي توجي بضرورة الإسراع والتعجيل (أدرك بخيلك) ، فالمدينة قد استبيحت وتحولت إلى مرتع للكفر بعد أن كانت منارة الإسلام والإيمان ، فالمساجد أصبحت بيعاً وصارت الأجراس تدق بدلاً من نداء المآذن ، وتغيرت البهجة والأنس إلى خراب وبؤس وشقاء ، فالقصيدة تفيض بمعاني الجزع والهلع لما انطوت عليه من حقائق مؤلمة وصور حزينة عن الأندلس ، ويذكر المقرئ في نفح الطيب أن القصيدة أعجبت الملك كثيراً فهزت منه عطف ارتياح ، وحركت من جنانه خفض جناح .

والشاعر قد وُفق في التأثير في عواطف الملك ومشاعره ولذلك بادر إلى إعانتهم فشحن الأساطيل بالمال والأقوات والكساء ، ولكن شدة الحصار الذي ضربه العدو على المدينة حال دون وصول المعونة . والقصيدة وجدانية مؤثرة فضلاً عن أنها امتازت ببنائها الفني وصورها الشعرية الاستعارية المكثفة (تعانيه حشاشتها ، ذقت البلوى ، عقائلها المحجوبة ، ينسف النفس أو ينزف النفسا ، حلها الإشراك مبتسماً ، ارتحل الإيمان مبتئساً ، صيرتها العوادي ، يستوحش الطرف...) .

الاتجاه الثاني : مانظم بعد سقوط المدن والممال وتغلب الأعداء ، ويأخذ هذا الاتجاه طابع الهدوء والاتعاض والاستسلام والتبسيط في عرض الأحداث ونقل الصور بما يقربه من السرد ، فهمُ الشاعر تصويرُ المأساة وتصوير الفجيعة ، وتجسيم المصير الذي آلت إليه الأندلس ، بأسلوب حزين ونغم شجي لا يخلو من الحكمة والتأمل والاعتبار .

وقد قُسم شعر الرثاء في هذا المضممار على جانبين :

الأول : رثاء المدن : منها سقوط (بربشتر) سنة ٤٥٦ هـ ، وسقوط (طليطلة) ٤٧٨ هـ ، و(بلنسية) ٤٨٧ هـ وكان لسقوط(بربشتر) الأثر العميق في نفوس الشعراء ، منهم ابن العسال الذي صور ما لاقاه سكان المدينة من أحداث تشيب لها الولدان بقوله :

ولقد رمانا المشركون بأسهم

لم تُخطِ لكن شأنها الصماء

هتكوا بخيلهم قصور حريمها

لم يبق لا جبل ولا بطحاء

جاسوا خلال ديارهم فلهم بها

في كل يوم غارة شعواء

باتت قلوب المسلمين برعبهم

فحماننا في حربهم جبناء

وفي سقوط طليطلة ونكبتها كان للشعر دوره البارز في هذه النكبة ، وابن العسال خير شاعر أحسن بهول النكبة لأنه قاسى مرارتها شخصياً حين أُخرج من المدينة مع من خرج من المسلمين لاسيما بعد استيلاء النصارى عليها وطبعت أبياته بطابع النجدة والتحذير ثم الحث على ترك المدينة ، لأنه بنظره أفضل من السبي والعيش في خدمة الظالمين ، ثم أخذ يدق ناقوس الخطر ويحث قومه على الرحيل قبل أن يبيدهم (ألفونسو) وجيشه ، لأنهم لا يحفظون عهداً ، ولا يراعون حرمة ، يقول :

يا أهل أندلسٍ حثوا مطيكم

فما المقامُ بها إلا من الغلط

الثوب ينسلّ من أطرافه وأرى

ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سبط

فالشعر كان خبر معبر عن النكبات التي حلت بالأندلس ، وفي مقدمتهم أبو البقاء الرندي الذي
رثى الأندلس كلها بكل مدنها ، فكان يتحدث بلسان الأندلسيين وصور مشاعرهم وحسرتهم على
سقوطها المدينة تلو الأخرى ، يقول :

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن

قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان

الثاني : رثاء الممالك والدول :

من ذلك سقوط دولة بني عبّاد بأشبيلية ، ولفداحة الكارثة التي ألمت بها ، رثاها الشعراء
بألم وحرقة ، منهم (ابن اللبانة) الذي ألف في رثاء دولتهم كتابين أحدهما (السلوك في وعظ
الملوك) ضمّنه ما قيل في رثاء العباديين ، والبكاء على محنتهم من أشعار ، والثاني (الاعتماد
في أخبار بني عباد) ويتحدث عن تاريخهم ، وأخبارهم فضلاً عن مراثيه الكثيرة فيهم ، وفي
المعتمد بصورة خاصة . فقد ضرب ابن اللبانة مثلاً رائعاً في الوفاء للمعتمد بن عباد ، ومن
أروع ما قاله في ذلك دالية يقول فيها :

تبكي السماء بدمع رائج غادي على البهاليل من أبناء عبّاد

على الجبال التي هُدّت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد

كما رثاهم ابن عبدون بقصيدة طويلة ، نقتطف منها الآتي :

الدَّهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصّور

فلا يغرنك من دنياك نومتها فما صناعة عينيها سوى السّهر

ما لليالي أقال الله عثرتها من الليالي وخانتها يدُ الغير

شعر الغربة والحنين في الأندلس

الغربة لغة : الغربة والاغتراب والتغرب ، وكلّها هنا بمعنى واحد فهو غريب ، الجمع : غرباء والأغرباء أيضاً الأبعد ، والتغريب النفي عن البلد أو الابتعاد عنه ، والحنين : هو الشوق ، وتوقان النفس وقد (حَنَّ حنيناً) أما اصطلاحاً فيقال أغرب الرجل ، صار غريباً ، ورجل غريب ، ليس من القوم ، لذلك فشعر الغربة والحنين هو الحنين إلى الوطن والأرض ، ومن عليها من أهل وأصحاب ، ولو تأملنا شعر الغربة والحنين في الأندلس لوجدناه يضم كثيراً من الصور الجميلة التي أفصحت عن تفاعلهم مع بيئتهم وقد استمدت قيمتها الفنية وأصالتها من الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي ، فصيغت بصيغة أندلسية اكتسبت من خلالها ألواناً جديدة ، ومن يتصفح دواوين الشعر الأندلسي يجد فيضاً من الشعر الذي يشكو فيه أصحابه من اغترابهم وما يلاقونه من آلام نفسية ...

دواعي ظهوره :

يرجح الباحثون عدداً من العوامل الأساسية التي مهدت لظهور شعر الغربة والحنين في الأندلس ، متمثلة في الأوضاع السياسية والاجتماعية التي مرت بها بلاد الأندلس فقد أصبحت حياة الأندلس مضطربة وقلقة لاينعم أحد فيها بالاستقرار بما في ذلك الشعراء ، إذ ينتقل الشاعر من مدينة أو مملكة أصابها الخراب إلى أخرى لاتلبث كثيراً حتى يصيبها وابل الدمار من جهة أو أخرى ، فضلاً عن الصراعات الداخلية بين الأفراد والحكام والمحكومين وسبق وأشرنا في رثاء المدن والممالك إلى الانفصام والتشتت الذي أصاب الأندلس بكل مفاصلها ، وسقوط المدن الواحدة تلو الأخرى وعوامل خارجية تمثلت بالضغط المتزايد والصراع الدائم للممالك المسيحية مع الأندلس ، ناهيك عن الفتن التي أصابت الأندلس والصراعات بين عناصر المجتمع وظهور العصابات وتشتت المجتمع إلى طوائف تضرر فيه كل طائفة الحقد لطائفة أخرى يضارف إلى ذلك بعد القطر الأندلسي عن بلاد المشرق ...

موضوعاته وخصائصه :

تحددت موضوعاته في تذكّر الوطن والتشوق إلى معاهده وشكوى الغربة والابتعاد عن الأرض والأحباب ، والندم على الاغتراب ، وتصوير الحسرات لفقدان البلد والبعد عنه ، وبث التجارب الذاتية للشعراء في ديار الغربة ، وتصوير ملاعب الصبا وتذكر أيامها وعهودهم السعيدة التي مضت ، وشوقهم وتلهفهم إلى قربها والتمرغ في أحضانها ، على نحو ما نجد في قول عبد الرحمن الداخل ، وقد مر ذكره :

أيها الراكب الميمم أرضي أقر من بعضي السلام لبعضي
إنّ جسمي كما تراه بأرضٍ وفؤادي ومالكيه بأرض

قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي

قد قضى الله بالبعد علينا فعسى باقترابنا سوف يقضي

و على نحو ما نجد في عهدو الطوائف والمرابطين كانت القصائد تسير على منهج يدمج عواطف الحنين وأحاسيس الغربة ومعاناة الشوق نحو الديار ضمن معاني المديح والاستصراخ ، وإذا أتى بها الشاعر مستقلة فإنها لاتخرج عن بث تصورات الشاعر وحالاته وحسراته لفقدان البلد ، والعهد المرابطي أعلى منزلة الفقهاء ورجال الدين وجعل كلمتهم نافذة مسموعة وهذا ما وُجد من تأثير الشعراء الاجتماعي فارتفعت صرخات الشعراء شاكية باكية من الغبن والحيف بألفاظ تعبيرية توجي بما عاناه الشاعر من ضياع ووحشة وإهمال ، لنستمع إلى أبي مروان عبد الملك بن محمد بن شماخ الذي تغرب عن أشبيلية وظل يبكيها قائلاً :

ياليت شعري : هل دامت لهم حال عَهدُها في حفاظ العهد أم مالوا

فإن تكن سائلاً عمّن تركتَ فقد شاب الشباب وقد شب أطفال

أرجو الإياب بفأل فيه أسمعهِ والدهر يفعل مالا يخبر الفأل

أما في عصر الموحدين فقد قلت الشكوى وازدادت أشعار الغربة رهافة وعاطفة ورقه وغلب عليها طابع الحنين والتشوق وقل فيها عتاب الشاعر لأهله الذين تجاهلوا قيمته وفنه ، فراح يفجر في شعره شحنات عاطفية فياضة تنفس عن الضيق الذي يحاصره ، والكربة التي تطوقه ، من ذلك حنين الرصافي البلسني وتشوقه لمجالس أصحابه في (السرحة) قائلاً :

لولاك ياسرح لم نُبق الفلا عطلاً من السرى ، والدجى خفاقة الطنب

ولم نبت نتقاضى من مدامعنا ديناً لتربك من رقراقها السرب

أنواع الغربة :

ظل الشاعر متعلقاً بوطنه مهما قست ظروفه عليه ومهما أحس باختلال الأمن فيه وضياع الاستقرار وجور الحكام ، وتفشي الفساد والفوضى في أرجائه ولا بديل له عنه ، حتى لو تهيات له فرص المجد والشهرة في بلاد أخرى ، لذلك قسم الباحثون شعر الغربة التي أنواع منها :

أ - الغربة المكانية : عن فيه الشعراء عن مشاعرهم لتركهم ديارهم ، وتكبدتهم عناء الرحيل ورغبتهم الشديدة والملحة في العودة إلى ديارهم التي حالت الظروف دون عودتهم إليها ومن بين الشعراء الذين عنوا بهذا النوع من الغربة بصورة واضحة ، عبد الرحمن الداخل وابن دراج القسطلبي الذي يقول :

شَدَّ الجلاء رحالهم فتحَمَلت أَفلاذ قلب بالهموم مبدد

وَحَدَّتْ بهم صعقاتُ روعٍ تشردت أوطانُهم في الأرض كلَّ مشرد

ب - الغربة الزمانية : هي تلك الحالة النفسية التي تصيب الإنسان داخل وطنه في مرحلة زمنية غير مواتية تجعله يشعر بالغربة بين أهله وذويه ويعود هذا النوع من الغربة إلى ما كان يسود الأندلس من فتن وصراعات أدمت القلوب وحيرت العقول فضلاً عن أن بعض الطبقات استغلت الأوضاع المتدهورة للبلاد وتسلمت حتى ووصلت إلى مكانة ومنزلة اجتماعية لاتستحقها ووصلوا إلى مراتب ومناصب دون امتلاكهم مقومات تجعلهم جديرين بها بل راحوا يزاحمون الشعراء والمفكرين في مكانتهم ، وقد أخذ الشعراء على عاتقهم التعبير عن هذا النوع من الغربة بصور متعددة فيها ذم الزمان وأهله ويلتمسون العذر لأنفسهم بأنهم جاؤوا في زمن ليس بزمانهم كقول ابن مالك القرطبي :

وإنما العذر لي أن جئت في زمن لا الجيل جيلي ولا الزمان زماني

ج - الغربة الروحية : كانت الغربة الروحية نتاجاً لكل العوامل التي أنتجت الغربتين المكانية والزمانية ، وإن كانت تأخذ بُعداً دينياً قد يتصف بنفس الإنسان وروحه ، فراح الشاعر الأندلسي يبحث عن مخرج مما هو فيه ، فكان الدين بمثابة ملجأ يلجأ إليه فيعطيه الدافع على تحمل ما سي الدنيا وآلامها ، فيصبح أمله في أن يأتي ذلك اليوم الذي تنطلق فيه الروح من سجن الجسد ومن أسر هذا العالم ، وذلك عن طريق الموت الذي تطمئن به الروح وتعود إلى خالقها ، من ذلك قول ابن اللبانة :

انفض يدك من الدنيا وسكانها فالأرض قد اخضرت والناس قد ماتوا

شاعر الغربة والحنين : ابن دراج القسطلبي

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج ، ولد في سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م في جيان ، وفد ابن دراج إلى قرطبة في عهد الحاجب المنصور الذي استأثر بالحكم لنفسه بعد هشام الذي سلب الحكم منه ، وتنگر لوصية الخليفة الحكم بن ناصر ، فمدحه وحظي بإعجابه ووصف غزواته وانتصاراته ، وبقي ابن دراج عند المنصور حتى توفي في دانية سنة ٤٢١هـ / ١٠٣٠م .

ابن دراج ، شاعر فحل مكثر مطيل ، وكاتب مترسل بارع ، وأسلوبه مطبوع على غرار شعراء المشرق و ولقب بمتنبي المغرب لعذوبة شعره وسلاسته مع شيء من الغموض ، وقد وصفه الثعالبي بأنه كان بالأندلس كالمتنبي في الشام ، وأورد ابن بسام في ذخيرته ونماذج من شعره ورسائله ، وعلى الرغم من غلبة المدح على الطابع العام لديوانه فإن قصائده في المدح ضمت أغراضاً أخرى ، فوصف مواقف الوداع وفراق الأهل والأحباب ، ووصف الرحلة والاعتراب وما يحدث فيها من مشاهد مسيئة وآلام نفسية مغلفة بالقلق والحيرة ، ويعد ابن دراج أكثر الشعراء ذكراً لأولاده في شعره مازجاً ذكرهم بالشكوى من قسوة الأيام ومرارتها ، ذلك أن الظروف القاسية اضطرتته إلى ترك (قسطل) مسقط رأسه وفيها أولاده والسفر إلى (قرطبة) زمنًا بحثًا عن القوت له ولأولاده فكان يرحل عنهم مودعاً إياهم أو يرحلون عنه مودعين ، وقد بلغوا أكثر من عشرة أفراد بين بنين وبنات . فقد كان في شعره صوت تردد في قصائده وهو صوت العاطفة الأسرية ، والأبوية تحديداً ، والذي انطلق من إحساسه العميق بأسرته وتعلقه الشديد بزوجته وأولاده ، ولعله كان أهم الموضوعات الشعرية الإنسانية التي تخللت قصائده وله قصيدة في الغربة والحنين يصور فيها مشاهد الوداع لزوجته وأولاده ومحاولته تهدئتها وإقناعها بالرضا والتحلي بالصبر موضعاً في الوقت ذاته تعلقه بها واهتمامه بشأنها فهي بالنسبة إليه سكنه ومأمنه ، وهي رمز الاستقرار ، فهي الأم الحنون ، والزوجة الوفية ، والابنة المشفقة وهي بؤرة لكل المشاعر المرهفة والمتدفقة التي يأنس بها الرجل ، وقد صور لنا مشهد توديع زوجته قائلاً :

دعي عزمات المستضام تسير فتجد في عرض الفلا وتغور
لعل بما أشجاك منه لوعة النوى يُعز ذليل أو يُفك أسير
ولما تدانت للوداع وقد هفا بصبري منها أنه وزفير
وطار جناح الشوق بي وهفا بها جوانح من دعر الفراق تطير

وعلى الرغم من أن ابن دراج نظمها معارضه لأبي نواس إلا أنها بلغت من الإجادة مكاناً عالياً ، وقال عنها د . شوقي ضيف إنها قطعة تفيض بالعواطف والشعور الحي ليدل على جودة شاعرية ابن دراج .